تحريم الغناء

للأستاذ الشيخ حسنين مخلوف

مقدمة : — كثر الكلام عن الغناء . ففريق يذمه ويحرمه وفريق يدعو اليه ويستحسنه ، وفريق بين هذا وذاك .

ويهمني في هذا الموضوع أن أوضح للقارىء حقيقة الغناء ومكانته في الدين ، والواقع إن هذا السؤال حيّر أهل الحكمة من قديم الزمان ، لأنهم إن حكموا بإباحته استغله السفلة والعوام مطية لقضاء ما تهوى من الشهوات والملذات ، فلا يلبث أن ينقلب الغناء نقمة ورذيلة ، وإن حكموا بتحريمه حكموا على قلوبهم بما فيها من شعور ووجدان بالقسوة والحرمان . ومع ذلك فقد تصدى بعضهم للغناء فعرفه وأباحه أو حرمه وأعرض عنه .

ويعجبني في تعريف الغناء قول الأستاذ المرحوم الشيخ المنفلوطي « والغناء على أية حال هو بقية خواطر النفس التي عجز عن ابرازها اللسان فأبرزتها الألحان » . والواقع أن الغناء أقوى الوسائل في تخليد الحِكم والمواعظ ، بل وتصويرها في أحسن صورها ، لهذا أباه الدين واستدل فقهاء المسلمين على اباحته بأدلة منقولة وأدلة معقولة .

أولاً — الأدلة المنقولة : وترجع في جملتها الى أحاديث مروية عن نبي المسلمين محمد صلى الله عليه وسلم وأقوال عن بعض الائمة والتابعين وعن بعض المجتهدين .

١ — الأحاديث المروية عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم

١ — رواية عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر وكان معه غلام أسود يقال له أنجشة يحدو . فقال له الرسول (ويحك يا أنجشه . رويدك بالقوارير) وذلك لانه كان يسوق الابل وعليها بعض أمهات المؤمنين وأم أنس وهي

أم سلمة ويقنيها بصوته الحسن فأسرعت الابل ، فتألمت النسوة فقال رسول الله (ويحك يا أنجشة رويدك بالقوارير) أي تمهل في سوق الابل وخفض من صوتك لراحة النسوة ، فانهن كالقوارير أي كالزجاج لا يتحملن لأن الابل إذا غنى لها بصوت حسن طربت وهدت وقطعت المسافة الطويلة بدون ملل ولا سآمة .

٢ — وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن وقد ذم الله الصوت القبيح بقوله تعالى « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)

٣ — وعن البراء بن عازب قال سمعت رسول الله يقول (حسنوا القرآن بأصواتكم ، فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً) .

٤ — قال النبي صلوات الله عليه لابي موسى الأشعري لما أعجبه حسن صوته (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود) .

ب — الأقوال المروية عن الأئمة في الاسلام

١ — روى ابراهيم بن سعد الزهري عن مالك ان مالكاً سمع من يغني شيئاً على غير الصواب فأخرج رأسه من كوة وردّه الى الصواب فسأله ذلك الشخص ليعيده فقال (حتى تقول أخذته عن مالك بن انس) .

٢ — وعن الامام الشافعي قال بعد ان اطلق الحرمة في سماع الآلات في رسالته قال بعد ذلك في سياق سماع الغناء والمزامير والمعازف وسائر الملاهي : —

(ولسنا نحرم مطلق السماع ولا نعتقد ان ما يفعل من ذلك كله سفساف وضياع) .

٣ — وقال ابراهيم بن سعد الزهري : (شهادتي على أبي انه سمع مالكاً في غرس ابن حنظلة الفضل يتغنى : —

سليمى أزمعت بينا فأين بوصلها أينا

٤ — ولم يرد عن بقية الائمة ما يفيد تحريم الغناء .

ج — الأقوال المروية عن الصحابة والتابعين

١ — قال عمر بن الخطاب في بعض أسفاره لرباح المعنزف (مغني) فغناه شعراً .

أتعرف رسماً كالطراز المذهب بعمرة قفراً غير موقف راكب

فأصغى اليه عمر وقال (أجدت بارك الله فيك) فقال رباح (يا أمير المؤمنين لو قلت زه كان أعجب لي) قال (وما زه ؟) قال (كلمة كان كسرى إذا قالها أعطى مَن قالها له أربعة آلاف درهم) قال (ان شئت ان أقولها لك فعلت فما إعطاء أربعة آلاف درهم فلا يجوز لي من مال المسلمين) .

٢ — وعن عبد الله بن مسعود قال (ما بعث الله نبيًّا إلا في حسن صوت وحسن صورة)

٣ — وحكى الماوردي في الحاوي ان معاوية وعمرو بن العاص مضيا الى عبد الله بن جعفر لما استكثر من سماع الغناء وانقطع اليه واشتغل به ليكلماه فيه فلما دخلا عليه سكتت الجواري فقال له معاوية (مرهنَّ يرجعن الى ما كنَّ عليه) فرجعن فضربن فطرب معاوية وحرك رجليه على السرير فقال له عمرو (ان من جئت ملجأه لحسن مالا منك) فقال له (اليك يا عمرو فان الكريم مطروب) .

الجواري المغنيات

٤ — وقال رجل للحسن (البصري) رحمه الله (ما تقول في الغناء يا أبا سعيد) قال (نعم الشيء الغناء يوصل به الرحم وينفس به عن المكروب ويفعل المعروف) .

٥ — وقيل إن داود عليه السلام كان يسمع لقراءته الجن والإنس والوحش والطير إذا قرأ الزبور .

٦ — وقال عبد الله بن أويس ابن عم مالك وكان من أفضل رجال الزهري قال (مرَّ النبي بجارية في ظل قارح وهي تغني : —

هل عليَّ ويحكمُ إذ لهوتُ من حرج

فقال النبي (لا حرج إن شاء الله) .

٧ — كان عبد الله الملقب بالنفس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة . مرَّ عبد الله هذا يوماً بسلامة وهي تغني فقام يستمع غناءها فرآه مولاه فقال له (هل لك أن تدخل فلم أر أبى فلم يزل به حتى دخل فقال له (أوقفك في موضع يخيل تراها ولا تراك)

فغنته فأعجبه فقال له مولاه (هل لك في أن أحوطها اليك) فأبى ذلك عليه فلم يزل به حتى أجابه ، فلم يزل يسمعها ويلاحظها حتى شغف بها ، ولما شعرت الجنه إياها ، غنته الأبيات الآتية وما كادت تنهي منها حتى أغمي عليه وهي : —

رب يسر لي لنا بلغا رسالة من قبل أن يبرحا
لم يملا خبثا ولا مأثما ولا لسانا بالهوى مفصحا
حتى أستظل بجراتيها بالطائر الميمون قد انجحا
الغرف والطرف بمتناها فقضيا حاجا وما صرحا

و — الادلة المروية عن بعض المجتهدين

ورد في الاحياء للامام الغزالي ، ان التشبيب بوصف محاسن المرأة لا يحرم نظمه ولا انشاده بسرت أو بغير صوت ، طالما انه لا ينزل على أجنبية بعينها ، فان مال المستمع الى الحرام كانت الحرمة عليه وحده ، فلا يجوز له ان يحكم على غيره بما فيه ، وان مال الى المباح ، كان مال الى زوجته مثلاً فهو مباح .

وعلى ذلك فهو يجيز السماع والغناء في الاحوال الآتية : —

ا — اذا كان الغناء داعياً الى التقرب الى المولى عز وجل .

ب — غناء الحجيج لانه يهيج الشوق الى بيت الله تعالى .

ج — غناء الغزاة والمحاربين لانه يشجعهم على الحرب ويحرك الغيظ والغضب فيهم على أعدائهم .

د — غناء الاهل في أفراحهم تأكيداً للسرور واعلاناً عنه .

هـ — سماع أو غناء العشاق تأكيداً للذة في مشاهدة المعشوق إذا كان ممن يباح وصاله كالزوجة مثلاً ، فان طلقها زوجها حرم عليه ذلك بعده .

و — غناء الشجعان في وقت اللقاء فان ذلك يحرك النشاط فيهم للقتال

ثانياً — الادلة المعقولة : ١ — قال النبي صلى الله عليه وسلم (لهو المؤمن باطل إلا في ثلاث : تأديبه لفرسه ورميه عن قوسه وملاعبته مع أهله) ولا يمكن أن يكون غير هذه الثلاثة حراماً لانه إذ أريد باللهو ما يلهي عن الله وعن ذكره عند كل شيء يدخل فيه جميع المباحات لان فيها ألهو عن ذلك وليس المباح بحرام . وإذن فسماع الآلات يباح إذا كان في غير أوقات الصلوات ، بحيث لم يشغل عن أعمال الطاعات ، فانه لا يلهي حينئذ . وإذن فالمراد باللهو واللاهي المحرمة ما ألهت عن فعل الفرائض والواجبات ، واقترنت بالفجور

والمحرمات كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك . ولقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) والحياة الدنيا ليست بحرام ، لأن الحاصل من هذا القياس بعض اللهو واللعب ليس بحرام وهو ما استثناه النبي في حديثه المذكور .

٢ — وفي (القنية) وقيل المراد من استماع صوت الملاهي معصية وكفر إذا هو الاستحلال بالاعتقاد لا التلذذ بطبع نفساني كما في قوله عليه السلام (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده) ، والمراد من ذلك أنه إذا عرض محبتها في ميزان عقله لا ميزان طبعه النفساني الذي يغلي في عروق فؤاده وقتاً بعد وقت . وكل من كان مؤمناً إذا وزن محبة الرسول ومحبة ولده عند ميزان عقله رجح عنده محبة النبي .

وكذلك حال المؤمن في كل الملاهي ، إذا تفكر في حرمة وكون بعد منزلة من الله بذلك السبب ، ووزن حاله في ميزان عقله عند وجوده كره ، وان كان طبعه قد تلذذ بذلك عند سماعه .

٣ — وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس وحنّ اليه الروح . ولذلك قال أفلاطون (لا ينبغي أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضاً ، ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أيدانهم ، تزعوا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم) . فالغناء تفريج للكروب وتهدئة للنفوس في طول عنائها ، وما علق بها من مشاغل وأحزان) .

٤ — والواقع أن فيصل التفرقة بين التحريم والاباحة هو النية ، شأنه في ذلك شأن قراءة القرآن للجنب والحائض والنفساء ، فان كانت بنية القرآن أو الذكر أو الدعاء فهي جائزة ومباحة ، ومع ذلك يترتب عليها الحرمة ، اما اذا كانت القراءة بنية القرآن فهي حرام ، والنية وحدها لا تحرم ما لم يقترن بها فعل الجوارح من فحش وزنا وخمر .

هذه هي جملة ما ورد في الاسلام دفاعاً عن الغناء . واعتقد أن هناك ثمة أدلة يمكن استنتاجها من حياتنا العملية ومن اتصاف الغناء بصفة الفن ، سنوردها في العدد القادم إن شاء الله.

البحث بقية